الوليد بن يزيد

أ. د. عبد الرحيم الكردي

أستاذ النقد والأدب العربي الحديث بكلية الآداب جامعة قناة السويس

بعد طول انتظار أخرج العالم الناقد الدكتور محمد يونس عبد العال أستاذ الأدب والنقد بكلية الآداب جامعة عين شمس كتابه القيم عن "الوليد بن يزيد" إلى النور، أقول بعد طول انتظار لأن هذا الكتاب ظل مخطوطًا حبيس الأدرج ما يقارب خمسين عامًا؛ فقد كانت مسودته الأولى أطروحة جامعية نال بها الدكتور محمد يونس درجة الماجستير من قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٧٠م.

لم يكن هذا الكتاب أول كتاب عن الوليد بن يزيد ولا آخر كتاب؛ فقد جمع المستشرق الإيطالي فرانشسكو جابرييلي (١٩٠٤– ١٩٩٦) شعر الوليد بن يزيد، ونشره في مجلة الدراسات الشرقية في روما سنة ١٩٣٥م، ثم أعيد نشر الكتاب في مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق سنة ١٩٣٧م، وفي سنة ١٩٧٩م، نشر حسين عطوان كتابًا بعنوان "شعر الوليد بن يزيد، جمع وتحقيق"، وفي سنة ١٩٩٨م، أصدر واضح عبد الصمد في بيروت "شعر الوليد بن يزيد تحقيق وشرح"، ومن خلال عناوين هذين العملين الأخيرين يتبين أنهما يدوران في فلك المجموع الذي صنعه جابرييلي.

أما عمل الدكتور محمد يونس في هذا الكتاب فأمر مختلف، إذ لم يشأ أن يكون عمله هذا مجرد جمع لشعر الوليد بن يزيد وشرحه ودراسته، بل عمد إلى أمر صعب فيما يتعلق بشعر الوليد خاصة –إن لم يكن مجازفة أو مخاطرة– وهو استخدام منهج النقد التاريخي في تمحيص النصوص الشعرية والأخبار المتعلقة بحياته، وربطها بالحياة الثقافية في عصره، ثم بيان منابع هذا الشعر وأثره فيمن جاء بعده، ثم نقد مصادره، وبيان ما هو صحيح النسبة للوليد وما هو منحول مدعى عليه. وتنشأ الصعوبة في هذا العمل الذي قام به الدكتور محمد يونس من مصدرين:

الأول: ضخامة المرويات، وكثرة الكتب التراثية التي تحدثت عن الوليد وشعره وأخباره، إذ لا يكاد يخلو كتاب عن تاريخ العرب أو تاريخ الإسلام أو الأدب العربي من حديث عن الوليد وأخباره وأشعاره. ونظرة سريعة إلى عدد المراجع والمصادر التي أثبتها الكاتب في ذيل كتابه تشير إلى حجم معاناته في فرز هذه المرويات؛ فقد أورد ١٨٨ مصدرًا ومرجعًا، بين مطبوع ومخطوط، وبعض هذه المصادر يفيد بأنه اطلع على عدة نسخ منها، زيادة على ذلك أن

معظم هذه المرويات كانت قد دونت في أيام العباسيين أعداء بني أمية، الحريصين على تشويه صورهم.

المصدر الآخر للصعوبة: يكمن في الخلط والتشويش المتعمد وغير المتعمد الذي أصيبت به الأخبار المتعلقة بالوليد والنصوص الشعرية المنسوبة إليه، فالظروف السياسية والتاريخية والثقافية التي أحاطت بالوليد بن يزيد، والطبيعة التي جبل عليها الوليد نفسه، جعلت من الصعب الصعب التحقق من صحة أخباره أو نسبة أشعاره إليه أم إلى غيره.

فمن المعروف أن الوليد هو ابن الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك بن مروان، وأن يزيد بن عبد الملك عندما تولى الخلافة بعد موت عمر بن عبد العزيز عام ١٠١هـ، كان الوليد طفلاً لم يتجاوز عمره إحدى عشرة سنة، لذلك أوصى والده يزيد بولاية العهد لأخيه هشام بن عبد الملك، واشترط أن يكون ابنه الوليد بن يزيد هذا وليًا للعهد وخليفة من بعد هشام، لكن بعد موت يزيد سنة ١٠٥هـ، أراد هشام بن عبد الملك أن يستبد بالأمر، ويخلع الوليد من ولا ية العهد، ليكون الأمر لأولاده هو من بعده، فاستخدم كل الحيل لتشويه صورة الوليد أمام الناس، فأشاع عنه أنه فاسق وزنديق مستهتر بأمور الدين، حتى يثبت أنه لا يصلح للخلافة.

وقد ساعدت شخصية الوليد وطبيعته الانبساطية على ذيوع هذه الصورة التي أراد هشام أن يرسمها له في أذهان الناس، بل ساعد الوليد نفسه على الإفراط والمبالغة في رسم هذه الصورة، فقد كان الوليد مثل أبيه فنانًا وشاعرًا مطبوعًا رقيق الشعر، يحب سماع الغناء، ويغني، ويحب سماع الموسيقى، ويعزف على العود، ويضرب على الدف، ويحب الرقص، ويرقص، ويشرب، بل يعشق الخمر، لذلك كان يحيط نفسه بالمغنين والموسيقيين والندماء والشعراء ورواة الشعر، وكان فيه جرأة واستهتار.

واستمر الصراع بين الوليد وعمه هشام داخل قصور الخلافة حوالي عشرين عامًا، استعان فيها كل منهما بكل ما يملك لتشويه صورة الآخر، والناس خارج القصور، مغرمون دائمًا بالتلصص على ما يدور في داخلها، يصنعون من الحبة قبة، ويضيفون للخبر إشاعات وحكايات، وربما ألحقوا به أشعارًا وأغنيات.

ووصلت فصول الحكاية إلى ذروتها بموت هشام بن عبد الملك وتولي الوليد مقاليد الخلافة، وانتقامه من أبناء هشام، ثم ثورة الناس عليه وقتله شر قتلة، بل ربط الناس بين نهايته ونهاية الدولة الأموية نفسها، حتى أصبح مثلًا يضرب للخليفة الماجن الذي أضاع دولة آبائه وأجداده بين الكاس والوتر.

لكل ذلك أصبحت أخبار الوليد بن يزيد سيرة شعبية بطولية، تشبه سير العشاق في العصر الأموي؛ فنسج الرواة له حكايات طريفة، تشبه الحكايات التي تروى عن مجنون ليلى وغيره من الشعراء العذريين حينًا، وتشبه مغامرات عمر بن بن أبي ربيعة وغيره من شعراء الغزل الصريح حينًا آخر.

فصنعوا له محبوبة تسمى "سلمى"، وجعلوه محرومًا من لقائها، مثلما كان المجنون محرومًا من ليلى، ووضعوا له حكايات طريفة تقص حيله ومغامراته للقاء بها، مثل تنكره في صورة رجل فقير يبيع الزيت، وتوسله بأشعب لإيصال رسائل الغرام، ووضعوا على لسانه وعلى لسانها أشعارًا.

ومن ناحية أخرى فإن الخيال الشعبي للرواة صنع له سيرة درامية من نوع آخر، سيرة ذات طابع ديني، هذه السيرة الدرامية تعتمد على المقابلة بين المتناقضات، فهو في عنفوان شبابه وقوته مختال كالطاووس أبهة وجمالاً، على رأسه تاج الإمارة ثم الخلافة، يلبس الحرير وتطوق عنقه عناقيد اللؤلؤ والمرجان، فخور بنسبه ومقام عائلته، لكنه عند مقتله وزوال ملكه تلقى جثته في الطرقات وتمرغ في التراب ويعبث بها الصبيان، "ورئي رأسه في فم كلب"، كما قال عنه المعري في رسالة الغفران.

ويروون عنه أنه في عنفوان قوته وشبابه شوهد وهو يمزق المصحف، ويضربه بالرمح وهو يقول له:

أتوعد كل جبار عنيد ؟ فها أنا ذاك جبار عنيد
إذا لاقيت ربك يوم حشر فقل لله مزقني الولـيد

لكنه عندما حوصر في آخر حياته، وانهال عليه الثوار يقذفونه بالحجارة من كل جانب لم يجد إلا المصحف ليحتمي به، ويتوسل إليهم به، فيسيل دمه فوق الصفحة نفسها التي يقول الله تعالى فيها: "وخاب كل جبار عنيد".

لقد رسمت الروايات وكتب الأخبار لهذه الشخصية الثرية صورة خيالية مختلفة، بل أكبر بكثير من الحقيقة التاريخية لحياة هذا الأمير العابث، كما أنها أكثر من الحقيقة نفسها طرافة وجمالاً، هذه الصورة الخيالية أضافت للحقيقة أشياء كثيرة من وحي الخيال، وأهملت أشياء كثيرة جعلتها في طي النسيان، ونسبت له أقوالاً وأشعارًا جميلة كثيرة لم يقلها وأعمالاً لم يفعلها، وأضاعت كثيرًا من الأشعار الجميلة التي قالها، أو نسبت إلى غيره عمدًا أو غير عمد، مما أدى إلى صعوبة البحث الذي يهدف إلى التوصل إلى الصورة الحقيقة لمجمل الأشعار التي أنشدها الوليد، أو الصورة الحقيقية لمعتقداته وأفعاله، ونقدها نقدًا علميًا، وتمييز الصحيح من غير الصحيح.

وهذا ما فعله الدكتور محمد يونس في كتابه، رغم الصعوبات التي أحاطت به، فقد استطاع أن يثبت صحة نسبة عشر ومئة مقطوعة وقصيدة له، وأن تسعة عشر مقطوعة نسبت له وهي لغيره.

أيًا كان الأمر، فإن الأشعار الصحيحة النسبة التي وصلت إلينا من إبداعاته -رغم قلتها- تدل دلالة واضحة على أنه شاعر مجيد، وأن منزلته الشعرية لا تقل عن منزلة كبار الشعراء في عصره، وربما بعد عصره، من أمثال عمر بن أبي ربيعة، وجميل بثينة، وكثير عزة، وأبي نواس، وبشار، لكن الخلافة جنت عليه باعتباره شاعرًا، والشاعرية جنت عليه باعتباره خليفة، بل إن إن بعض النقاد يرون أنه يتفوق عليهم جميعًا، لأنه كان صاحب مذهب شعري هو الذي شق طريقه لمن بعده، وهو شعر الخمريات والمجون، فهو أستاذ أبي نواس والحسين بن الضحاك.

بل يذهب الدكتور محمد يونس إلى أبعد من ذلك؛ إذ يرى أن كثيرًا من المعاني الموجودة في أشعار أبي نواس وأضرابه من شعراء الخمريات في العصر العباسي مقتبسة أو منسلخة أو مأخوذة من معاني الوليد بن يزيد، لذلك كان لشعر الوليد نصيب وافر من الأشعار التي كانت تغنَّى في قصور الأمراء العباسيين، لرقة موسيقاها وخفة أوزانها، حتى إن صاحب الأغاني يروي أن بعض الرواة كان يأخذه الطرب عند إنشاده شعر الوليد حتى يكاد يرقص، ومع كل ذلك فإن من العجيب أن الرواة القدماء لم يجمعوا شعره في ديوان.

ومن نماذج هذا الشعر الراقص قوله:

أحب الغناء

وشرب الطلاء

وأُنس النساء

ورب السور

ودلّ الغواني

وعزف القيانِ

بِصَنجٍ يماني

قُبيل السَّحر

فأما الصَّباحَ

فهمِّي القِداح

وخيل شواح

جيادٌ حُضُر

ونصفَ النهارِ

عراك الجواري

وحلَّ الإزار

إذا تَنْبَهِر

وأما العشيّ

فأمرٌ جليّ

وقتل الكميّ

بِعَضْبٍ ذَكَر

سبتني البغوم

بدلٍّ رخيم

ووجه نضير

شبيه القمر

ورِدفٍ نبيل

وخد أسيل

كسيف صقيل

يَحِير البصر